ظاهرة ضعف القيم الأخلاقية فى عصر الطوائف بالأندلس

د. أحمد بن صالح السحيبانى(*)

عاش المجتمع الإسلامى بالأندلس - حكاماً ومحكومين - حياة وسطية لاتصل به إلى الغلو وترك المباحات والطيبات من الرزق ، كما لاتهبط به إلى الهاوية والانغماس فى البذخ والملذات .

وقد ظل كثير من الزعماء الأمويين بالأندلس محافظين على هذا الاتجاه ، مؤكدين على أهميته ، وهذا بلاشك مما أعطى دولتهم قوة أمام القوى الصليبية المتربصة بالمسلمين هناك ، ولكن حينما بدأ الضعف ينتاب الخلفاء اللاحقين وأخذت النزعة المادية لديهم بالظهور ، وتزامن مع بداية ضعف الدولة ليس أمام القوى النصرانية فحسب ، بل حتى مع الثوار والمنتقضين على الدولة من بنى جلدتها ، حينئذ بدت معاول الهدم ، وأسباب الضعف تنخر فى جسم الدولة الأموية ، مما انذر بسقوطها .

وحينما سقطت الدولة الأموية بالاندلس، قامت على أنقاضها دول الطوائف ، التى غلب عليها حب الدنيا والسعى للمصالح الذاتية ، وإشباع الغرائز فضلاً عن حياة اللهو والترف ، وغدا ذلك كله هاجساً دائماً ، وهدفاً مهماً يسعى إليه الكثير من مسلمي الأندلس حتى ولوأدى ذلك إلى تقديم تنازلات دينية ، أو سياسية ، أو خلقية ، أو وطنية(١) .

وهكذا ضعفت كثير من القيم الخلقية مما أدى إلى انتشار الكثير من الأمراض الخلقية بينهم ، كحياة الترف ، وكالمجون ، والخلاعة ، وشرب الخمر

(*) كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الأمام محمد بن سعود- الرياض .

والاستغراق فى الملذات الجسدية ، والاكثار من الجوارى والنســاء ، وهـى الأمـور التى صارت قاسما مشتركا بين كثير من دول الطوائف(٢).

ومما لاشك فيه أن وجود مثل هذه الأمراض الخلقيــة يمثـل معـولا مـن أكـبر معاول الهدم التى تقضى على الأمم والجماعات بـل حتـى الأسـر والأفـراد ، وفقـا لقوله تعالى ﴿ وإِذَاَ أَرَدْنَا أَن نّهْلِكَ قَرْيَ ۖ أَمَرنْاَ مُتْرَفيهـاَ فَفَسَـقُوا فيهـاَ فَحَـقّ عَلَيْهـاَ الْقَوْلُ فَدَمَّرنْاَهاَ تَدْميراً ﴾(٣).

وعبر الشاعر عن ذلك بقوله :

إنمــا الأمم الأخــلاق مـابقيت فانهموا ذهبت أخلاقهم ذهبـوا

وقد ادرك هذه الحقيقة ابن خلدون فعقد فصلا فى مقدمته بعنوان :(فى أن من علامات الملك التنافس فـى الخـلال الحميـدة وبـالعكس) وقـد جـاء فـى هـذا الفصل قولـه :(.. إذا تـأذن ا لله بـانقراض الملـك مـن أمـة حملهـم علـى ارتكـاب المذمومات ، وانتحال الرذائل وسـلوك طرقهـا ، فتفتقـد الفضـائل السياسـية منهـم جملة، ولا تزال فى انتقاص إلى أن يخـرج الملـك مـن أيديهـم ... واستقرىء ذلـك وتتبعه فى الأمم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه ...)(٤).

ويـدرك مـن يستقرىء تـاريخ ذلـك العصـر أن هـذه الظـاهرة لم تنشـأ فـى الأندلس من فراغ فى ذلك المجتمع المسلم ، بل كان لها أسباب وظروف نشأت فى ظلها ، كما كانت لها وسائلها وطرقهـا وميادينهـا ، كمـا تمخـض عنهـا نتائجهـا وافرازاتها .

وسوف تحاول هذه الدراسة بإذن ا لله – رصد هذه الظاهرة من خلال هـذه المحاور .

أما أسبابها فمما لاشك فيه أن الوازع الدينى عند أفراد ذلــك المجتمـع كـان السبب الرئيسى لذلك الضعف ، وقد أكّد ذلك عدد من المؤرخين المعاصرين فـابن حيّان – شيخ مؤرخي الأندلس – قال واصفاً ذلك العصر :(دهرنا هذا قـد غربـل

أهليه أشد غربلة ، فسفف أخلاقهم ، وسفه أحلامهم ، وخبث ضمائرهم ... فاحتوى عليهم الجهل يعللون نفوسهم بالباطل ...)(٥) .

أما ابن حزم فقد وصف تلكم الحالة بقوله :(اللهم إننا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا ، بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب ، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم ، وبجمع أموال ربما كانت سبباً فى انقراض أعمارهم ، وعوناً لأعدائنا عليهم عن حاجة ملتهم حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة ، وأنطلقت السنة أهل الكفر والشرك(٦)...) كذلك ذكر فى موضع آخر أن ملوك الطوائف لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها(٧)وقد ذكر ابن عذارى أنه فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة تميز ملوك الطوائف ، وعمتهم الفرقة ، مامنهم من يحذر الآخرة(٨).

وقد ترك لنا ابن الكردبوس وصفا أدق لمجتمع ملوك الطوائف حيث بّين أنهم:« مشغلون بشرب الخمر ، واقتناء القيان ، وركوب المعاصى ، وسماع العيدان ، وكل واحد منهم ، يتنافس فى شراء الذخائر الملكية .. إلى أن ضعف ... الطالب والمطلوب وذل الرئيس والمرؤس ، وافتقرت الرعية ، وفسدت أحوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية ...»(٩).

أما الشعراء والأدباء فقد لمسوا هذا الضعف ، فصوروه ، وذكروا سببه وأجادوا فى ذلك .

ومن هؤلاء أبو الحسن بن الجدّ وكان من ضمن ماقاله(١٠):

أرى الملوك إصابتهم بأندلس ... دوائر السوء لا تبقى ولاتذر
ناموا وأسرى تحت الدجى قدر ... هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من فى كفه قدح ... تحدوبه مذهلات النأى والوتر
كأننى بكم قد صرتم سمرا ... ومالكم فى الورى عين ولا أثر
أماتكم قبل موت سوءُ فعلكم ... وكيف بالذكر إذ لم تحسن السير

كذلك ذكر المقرى قصيدة لأحد شعراء الأندلس ، بين فيها واقع المسلمين آنذاك ، وكيف تغير حينما ابتعدوا عن دينهم ، وتخلوْا عن أصالتهم وقيمهم التى دخلوا بها ، ومما جاء فى تلك القصيدة(١١) .

فإن قلنا العقوبة أدركتهم وجاءهم من الله النكير

فإنا مثلهم وأشد منهم نجور وكيف يسلم من يجور

أنأمن أن يحل بنا انتقام وفينا الفسق أجمع والفجور

وأكل للحرام ولا اضطرار إليه فيسهل الأمر العسير

ولكن جرأة فى عقر دار كذلك يفعل الكلب العقور

يزول الستر عن قوم إذاما على العصيان آرخيت الستور

هكذا وصف المؤرخون حالة أولئك القوم ، فالبعد عن الالتزام بأحكام الدين ومبادئه، أصبح سمة غالبة ، لها مظاهرها الواضحة فىالمجتمع الإسلامى بالأندلس.

وقد وصف المراكشى بعض تلك المظاهر ، بقوله :(وأخذ ا لله أكثر هؤلاء الرؤساء ... بسوء فعلهم ... من ظلم المسلمين ، وأخذ أموالهم بغير حق ، وتغييرهم لنعمهم ، وقطعهم لثمارهم ...)(١٢) .

ووصف أحد الباحثين المحدثين ذلك الوضع فقال : « انتشر الربا بين الناس الذين تحايلوا على منع الزكاة ، وقاموا باحتكار السلع والمواد الغذائية ، حتى يثروا على حساب الغير ، كما أثرى غيرهم من الحكام ، وجرهم هذا إلى إتقان تزييف العملة ... أما الرشوة وأكل أموال اليتامى ، والتجسس ، والجبن ، والجهل ، والكذب ، وغش الأطعمة ، والأغذية ، وانتشار السرقات ، واللصوصية ، وغير ذلك من الرذائل ، والعيوب الاجتماعية ، فقد انتشرت بين الناس انتشاراً واسعاً حتى قال بعض المعاصرين أن تلك الحال لا يصلحها إلا نبى »(١٣) .

وبالإضافة إلى ضعف الوازع الدينى فإن من الأسباب القوية - أيضا- فى إيغال أولئك القوم فى تلكم المستنقعات الموبوءة مامنوا به من ضعف معنوى ، إلى

جانب ماتعرضوا له من نكبات نفسية ، وشعور بالقلق ، مما جعلهم يتوقعون أن فى ممارسة مثل تلكم السلوكيات خلاصا لهم مما كانوا يعانونه من الأوجاع النفسية أو ساترا لماهم فيه من ضعف وحيرة ، ومن أمثلة ذلك ماذكره ابن عذارى من أن المعتضدبن عباد والى حرب ابن الأفطس صاحب بطليوس عدة شهور من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، فغير بلده كمادمر عمارات واسعة وأفسد غلاتها وأوقع فى رعيته المجاعة الطويلة . فلما انتهى ابن عباد من تدويخ بلاده ورجع إلى إشبيلية أرسل المظفربن الأفطس رسولا إلى قرطبة ليشترى له وصائف ملهيات يأنس بهن نافيا بذلك الشماتة عن نفسه ، ولم تكن له عادة بمثل هذا الأمر . وقد وجد له رسوله صبيتين ملهيتين عند بعض التجار فاشتراهما بغالى الثمن(١٤)، وتعجب الناس « مما شهربه نفسه من البطالة أيام الحروب المحرمة لإظهار النساء على فحول الرجال العاقدة لآزرة على ماكان يدعيه لنفسه من الأدب والمعرفة»(١٥).

كذلك ذكر الفتح بن خاقان أن المعتصم صاحب المرية أقام مجلسا للهو والخمر ليخفف من حزنه على وفاة إحدى حظاياه ، ويقول الفتح فى ذلك :«قدم بين يديه من الآت أطرابه وأدوات شربه ، ما اتخذه لأنسه جالباً، وللوعته غالبا»(١٦).

هكذا كان أولئل القوم يلقون بأنفسهم فى أوحال الترف ، ومستنقعاته ، ظنا منهم أن فى تلكم الأعمال خلاصاً مماهم فيه من ضعف ونكسة نفسية ، فإلى جانب ضعفهم فى ميادين الجهاد ومقاومة الأعداء فإن هذا التحرر من الأخلاق والعادات والقيم أدى إلى ضعف دولهم ، وتراخى سلطانهم حينما أصبحوا أسرى للذاتهم وشهواتهم حيث وصف أحدهم تلكم الحال بقوله(١٧) :

لعمرك إنى بالمدامة قوال ... وإنى لما يهوى الندامى لفعّال

قسمت زمانى بين كدّوراحة ... فللرأى أسحار وللطيب آصال

فأمسى على اللذات واللهو عاكفا ... وأضحى بساحات الرئاسة ختال

ولست على الإدمان أغفل بغيتى ... من المجد إنى فى المعالى لمحتال

ويقول الآخر :

علل فؤادك قـــد أبـــلّ عليـــل　　واغنم حيـاتك فالبقـــاء قليـــلُ
لـــو أن عمـــرك ألف عام كامل　　مـــا كان حقا أن يقال طـــويل
أكذا يقـودبك الأسى نحو الردى　　والعـود عود والشمول شـــمول
لايستبيك الهـــــم نفســـك عنوة　　والكأس سيف فى يديك صقيـل
بالعقل تزدحم الهموم على الحشا　　فالعقل عندى أن تزول عقـــول(١٨)

وقد انعكس هذا الضعف ، فى التمســك بمبـادىء الديـن وأحكامـه ، علـى واقع المجتمع الإسلامى هناك ؛ حيث أدى غياب الوازع الدينـــى مـن نفـوس النـاس حكاماً ومحكومين إلى حدوث خلل عام ، بدت صوره ومظاهره واضحة للعيـان ، من أهمها ظاهرة ضعف القيم الأخلاقية .

وهذه الظاهرة قد بدت فى عدة صور لعل من أهمها :

١- التكاثر المادى　　٢- الترف والاسراف　　٣- المجون والخلاعة.

١- أما التكاثر المادى :

فقد بدت ظاهرة واضحة ، وسمة مميزة لذلـك العصـر حيـث تنـافس أولئـك القوم فيها ، وقد كانت لهم وسائل خاصة سلكوها من أجـل هـذا الغـرض، بينهـا المؤرخون حيث ذكروا أن الكثير من أولئك القوم كانوا لا يتورعون عن أى وسيلة يرون أنها تزيد من كسبهم ، أوتعينهم على تحقيق مصالحهم الذاتية ، أو توفـر لهـم حياة مترفة . فعلى بن حمود(٤٠٧-٤٠٨هـ) صاحب قرطبة فرض على أهل قرطبة ضروباً من المغارم ، كما انتزع السلاح منهم(١٩)، من أجل تحقيق هـــذا الغـرض ، بل أنه حاول ضرب الناس بعضهم ببعض ، حيث ((توصل إلى أعيـانهم بقـول مـن شرارهم ففتحوا لهم أبواباً من البلايـا أهلكـوا بهـا الأمـة ، وتقربـوا إليـه بالسـعادة فيهم، وصار شطر الناس أشراطا على سائرهم ، فلما تلقى أحدا الا بوكيلـين عليـه .. وأظلمت الدنيا وأبلس أهلها ، وغشـيهم مـن الله ماغشـيهم ..))(٢٠) وكذلـك

هذيل بن خلف بن زرين (٤٠٣-٤٣٦هـ) صاحب شنتمرية الشرق فقد غرق فى لذته وشهواته وصارت حياته صماء عن كل عمل خير بل بلغ به الجهل والفظاظة أن قتل أمّه بيده(٢١) .

أما المعتضدبن عباد صاحب إشبيلية ، فإنه لما ولى الأمر بعد أبيه ، بدأ بتصفية رجال الدولة ؛ لكى يستبد بالأمور ، وينفرد بالجاه والسلطان ويتحقق له ما يريد من حياة الترف ،« فمنهم من قتله صبرا ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقراً ، إلى أن تم له ما اراد من الاستبداد بألأمر ..»(٢٢). ويذكر المراكشى أنه استولى على مال رجل أعمى ، فلما ذهب الأعمى إلى مكة حيث أخذ يدعو على المعتضد ، أرسل إليه من سمّه هناك ، كما قتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل إشبيلية ، فرمنه إلى طليطلة(٢٣).

ولم يتورع المعتضد بن عباد حتى عن أموال العميان ومتوسطى الحال من عامة الناس ، بل ضمها إلى ماله ليكاثر بها أقرانه ملوك الطوائف ، وليدفعها ثمناً لملذاته وشهواته ، غير مبال بالأسلوب الذى نهجه أو الوسيلة التى اتبعها . ومما زاد الأمر سوءاً أنه حينما سلك هذا المسلك لم يكن بحاجة إلى ذلك المال للدفاع عن البلد أو تجهيز جيوش الجهاد ،بل كان جل غرضه وغرض أنداده من ملوك الطوائف الذين نهجوا هذا المنهج هو بنيان القصور ، وجمع الخيول ، واقتناء الغلمان ؛ ليتفاخروا بها فيما بينهم ، حيث عدوا هذه الأمور من الهمم العالية ، والرتب الملوكية ، كما أنها أصبحت هدف كل واحد منهم(٢٤). ويذكر ابن حيان أن المعتضد ابتنى القصور السامية ، واعتمر العمارات المغلة واكتسب الملابس الفاخرة ، وغالى الأعلاق السنية ، وارتبط الخيول السابحة ، واقتنى الغلمان الروقة ...»(٢٥).

ومن أبرز من سلك هذا المسلك من ملوك الطوائف المقتدر بالله أحمد بن هود (٤٣٨-٤٧٤هـ) حاكم الثغر الأعلى الأندلسى ، فقد أجبر رعيته على دفع المال له ، فلما اعترض عليه أحد الصالحين قتله(٢٦)، وقد ترك لنا المؤرخون وصفاً

دقيقاً لتمادى كل من مبارك ومظفر العامريين - حاكما مدينتى بلنسية وشاطبة - فى هذا السلوك. يقول ابن عذارى : « وبلغت جبايتها لأول ولا يتهما إلى مائة وعشرين ألف دينار فى الشهر ، سبعون بلنسية ، وخمسون شاطبة ، يستخرجانها بأشد العنف من كل صنف حتى تساقطت الرعية .... وسلك مبارك ومظفر سلوك الملوك الجبارين فى إشادة البناء والقصور ، والتباهى فى عليات الأمور إلى أبعد الغايات ، واشتمل هذا الرأى على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما ، وكتابهما ، فاحتذوا فعلهما فى تفخيم البناء ...لاهين عما كانت فيه الأمة يومئذ كأنهم من الله على عهد لايخلفه ...

واتسع الخرق فى عظيم ذلك الإنفاق ، فمنهم من قُدّرت نفقته على منزله مائة ألف دينار ... وكان لمبارك ومظفر جنة ذلك النعيم ... فأنغمسا فى النعيم إلى قمم رؤوسهما وأخلدا إلى الدعة ...»(٢٧).

أما ابن حيان فقد بين أن ما ناله هذان الزعيمان من بحبوحة العيش إنما كان بسوق الرعية المضطهدة ، فقد كانا لايعبئان بما نالها من آذا هما حيث يقلدان عليها شرار العمال ، حتى غدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر ، ويأكلون البقل والحشيش ، كما فر أكثرهم من قراهم(٢٨)، كذلك بين أن هذا الأسلوب كان سلوك الكثير من ملوك الطوائف الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة بنى أمية هناك(٢٨). وذكر الطرطوشى أن من عوامل ضعف المسلمين فى عصر ملوك الطوائف بالأندلس حرصهم على جمع المال ، ليس من أجل إعداد الرجال والقوة بل من أجل الراحة والدعة . وهذا مما أضعفهم حيث كان « للروم بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال ، فبهذه الحلة قهرونا وظهروا علينا »(٢٩) كما يقول الطرطوشى .

وقد عد ابن بسام تلك التصرفات المشينة(٣٠) من قبلهم بأنها قد غاظت الجماعة حيث داسوا أحساب الأحرار بأقدامهم متغافلين عن عادة الله فيمن جرى مجراهم(٣١).

أما منذر بن يحيى التجيبى (٤٠٧-٤٣٠هـ) صاحب سر قسطة فقد كان مع سموه للمعالى مؤثراً لشهواته ، غير متردد فى قضاء لذاته حيث كان متهالكا على حب الدنيا(٣٢) .

وكان أبويحيى محمد بن صمادح (٤٤٤-٤٨٠هـ) صاحب وشقة قد آثر مصالحه الذاتية مستبدا بالأموال لإشباع شهواته ولذاته « دون قضاء حق فى جهاد عدو أو سد ثغر..»(٣٣) .

وذكر ابن بسام أن أبا يحيى هذا اقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، من اللذة يستولى عليه ويبرزفيه(٣٤) اما حسام الدولة ابن رزين (٤٣٦هـ) فقد نافس جاره إسماعيل بن ذى النون فى جمع المال ، وفى خلال البخل وفرط القسوة ... وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس فى شراء القينات فاشترى جارية ابن عبد ا لله المتطبب بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار ..»(٣٥) كما ذكر ابن بسام أن ابن رزين كان له طبع يدعوه فيجيب ، كما كان يزدرى بالأمة ولايأبه بالناس(٣٦) أما أبو الوليد عبد الملك بن جهور (٤٥٠-٤٦١هـ) فقد استباح أموال الناس ، كما سلط على الرعية أهل الفساد ، حيث أهمل مسؤولياته الشرعية ، بل تعاظم على من حواليه حيث سمى نفسه بذى السيادتين ، المنصور با لله ، والظافر بفضل ا لله(٣٧) ..

ويذكر ابن عذارى أن سبب خلع أهل قرطبة لعبد الملك بن جهور هو ضجرهم من جوره وتعديه هو وحاشيته على الناس(٣٨) حيث استعانوا بجيش ابن عباد الذى جاء لنصرته ضد ابن ذى النون ، ولما حاصر قرطبة ثار عليه أهل المدينة بمؤازرة الجيش العبادى ، فكان زوال ملكه أسرع من لحسة الكلب كما يقول صاحب كتاب الأنباء فى سياسة الرؤساء(٣٩). ويبدو أن عبد الملك بن جهور قد بالغ كثيراً فى الاستيلاء على أموال الناس ، وضمها إلى حوزته حيث يذكر ابن سهل أنه أقيمت عليه دعوى بهذا الخصوص بعد سقوط دولة الجهاورة ، وأنه حكم برد المظا لم إلى أهلها(٤٠).

ومن أجل تحقيق المصالح الدنيوية لم يتورع بعض ملوك الطوائف عن التنازل عن المدن التى يحكمونها مقابل مال معين يحصلون عليه . ومما يذكر فى هذا الشأن موقف عبد العزيز البكرى حاكم شلطيش حينما حاصره ابن عباد بها فقد اصطلح معه على أن يبيعه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال . ثم لجأ إلى قرطبة فى كنف ابن المأمون مستأمنا على الأموال والأنفس ، بينما دخل ابن عباد شليطش التى خذلها زعيمها مقابل حصوله على الأموال(٤١).

* * *

هذه نماذج وأمثلة لحرص ملوك الطوائف على جمع المال ، والتفاخر فى كثرته ، ثم انفاقه فى ترفهم ومجونهم ، وهنا لابد من التساؤل عن الأساليب والوسائل التى كان أولئك القوم يستخدمونها لهذا الغرض الهّدام ، وتلك الغاية المقيتة ؟ ، وللإجابة على هذا التساؤل يقال : إن المتتبع للتاريخ السياسى والحربى لذلك العصر يدرك أنه لم يكن يحكمه أى مبدأ من مبادىء القيم والأخلاق بل الأعراف والتقاليد ، حيث كان الصراع السياسى والحربى هما الوسيلة الأولى فى هذا الميدان مهما كان الثمن لذلك ، ولم يتورع الحكام عن المكر والخديعة ، ونقض العهد ، كما كانوا ينهجون المراوغة مرة والمداهنة أخرى ، من أجل تحقيق هذا الهدف المهم فى نظرهم ، فإن لم ينفع هذا ولاذاك فالسيف(٤٢)وهذا بلاشك مما أوقد نار حرب ضروس ، كان وقودها المسلمون عامة ، خلفت الكثير من المآسى ، وذهب ضحيتها الآلاف من القتلى ، ولذا بقيت المدن نتيجة لتلك الحرب خالية من سكانها عدا الشيوخ والأطفال والنساء كما يذكر ابن عذارى(٤٣).

ولو حاولنا استقصاء ما بذل فى هذا الميدان لطال بنا المقام ، ويكفى أن كتب التاريخ التى عنيت بعصر ملوك الطوائف زاخرة بأحداث وحوادث تلكم المآسى ، ولكن حسبنا فى هذا المقام إشارة عابرة للدلالة والاستشهاد لا للرصد والتدوين .

ولعل مما يشفع لنا فى هذا المقام أن مؤرخى الأندلس المعاصرين لها قد أعرضوا عن ذكرها لالطول أحداثها فحسب ، بل لمرارتها وشدة وقعها على

النفوس . يقول ابن بسام ، وهو ممن عايش تلكم الأحداث حينما تحدث عن ابن صمادح :« وقد كانت بينه وبين حلفائه من ملوك الطوائف فى الجزيرة فتون مبيرة... وقد اندرجت له ولهم فى تضاعيف هذا التصنيف قصص تضيق عنها الأيام وتتبرأ منها القراطيس والأقلام »(٤٤).

ومما يمكن ذكره هنا ، تلكم الحروب التى وقعت بين عدد من ملوك الطوائف تناحراً على المصالح الذاتية ، فمنها ماوقع بين بنى زيرى أمراء غرناطة وبين زهير الفتى الصقلبى حاكم المرية والتى انتهت بمقتل زهير عند أسوار غرناطة ، حينما تصدى له باديس بن حبوس زعيم البربر فى غرناطة سنة ٤٢٩هـ(٤٥)، ثم استولى على المرية معن بن صمادخ غدراً من يد صهره عبد العزيز بن أبى عامر(٤٦).

ولم تكن هذه هى الجبهة الوحيدة التى قاتل فيها البربر ، بل إن بنى زيرى خاضوا حروباً متواصلة مع بنى عباد حكام إشبيلية ، حيث تمكن العباديون من اختراق الصف البربرى ، حينما أوقعوا بين زنانة فى قرمونة ، وصنهاجة فى جنوب الأندلس ، لكن العباديين خسروا الجولة حينما حاولوا الاستيلاء على قرمونة وأشبونة ، واستجة ، حيث قتل قائدهم إسماعيل بن عباد سنة ٤٣٠هـ حينما خذله بعض جنده(٤٧).

وكانت دولة بنى جهور فى قرطبة هدفاً مهماً لكثير من ملوك الطوائف ، وذلك لأهمية موقعها ، ولضعف قوتها ، حيث كان أول الطامعين بها بنوعباد الذين واصلوا حملاتهم العسكرية ضدها ؛ بغية الاستيلاء عليها ، وإسقاط دولة بنى جهور ، إن لم يبايعوا هشام المؤيد(٤٨)، وقد أثرت تلك الحملات على أهل قرطبة حيث غلت أسعارهم كما أصبحوا شبه محصورين داخل مدينتهم ، حينئذ أدركت باديس بن حبوس حاكم غرناطة الحمية ، فخرج لنصرة ابن جهور ضد خصومه بنى عباد الذين فروا بعد هزيمتهم خارج قرطبة سنة ٤٣١هـ(٤٩).

ولم يكن بنو عباد وحدهم الطامعين فى إسقاط دولة الجهاورة ودخول مدينة قرطبة للاستيلاء على خيراتها(٥٠)، بل إن الحموديين وبنى ذى النون ،

وغيرهم(٥١)كانت لديهم تلك الأطماع حيث حاولوا ذلك أكثر من مرة لكنهم فشلوا ، وفى النهاية آلت قرطبة إلى العباديين ، بعد تمكن جيشهم من طردبنى ذى النون من عند أسوارها ، وذلك فى ٢١ شعبان ، سنة ٤٦٢هـ(٥٢).

وكانت العلاقة بين بنى الأفطس حكام سرقسطة ، وبين جيرانهم بنى عباد سيئة، بسبب التنافس على المصالح الذاتية ، فقد وقعت بينهما مصادمات حربية كثيرة بسبب نزاعهما حول مدينة لبلة التى تقع على الحدود بينهما ، حيث قتل فى إحدى المعارك سنة ٤٤١هـ أمير قرمونة كما قتل عبيدا لله الخراز صاحب يابرة بينما نجا ابن الأفطس من المعركة بصعوبة ، وقتل من جيشه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف رجل(٥٣).

أما بنو ذى النون وبنو هود حكام سرقسطة ، فقد استمر الصراع بينهما من أجل تلكم الغايات الدنيوية ، ومما يذكر هنا نزاعهما حول مدينة وادى الحجارة(٥٤)، ذلك أنه حينما استولى عليها سليمان بن هود ، قامت قيامة يحيى بن ذى النون طمعا بتلك المدينة وما فيها من خيرات . وقد استعان كل واحد منهما بالنصارى ضد صاحبه حيث دامت الحرب بينهما من عام ٤٣٥هـ إلى آخر عام ٤٣٨هـ ولم تنته إلا بوفاة سليمان بن هود(٥٥)بعد أن خلفت آثاراً عسكرية ، واجتماعية ، ونفسية ، واقتصادية جسيمة .

هكذا كان واقع ملوك الطوائف، فالراضى منهم كان يضمر التوسع ، والساخط ينوى الثأر والانتقام . وهذا مما أشعل الحرب بينهم وأدام نشوب المعارك، وربما لسنوات عديدة دون هدف سام ، أو غاية نبيلة ، وقد كان الواحد منهم حينما يحشد الحشود لمحاربة أحد جيرانه من ملوك الطوائف يبالغ فى ذلك حتى إن كل واحد من ملوك الأندلس حينما يسمع بتلك الحشود يتوقع أنه توجه نحوه ، ويظن أنه لايريد سواه(٥٦).

ولم تكن تلك الحروب تحكمها مبادىء دين أو خلق ، بل كانت تقوم على المكر والخديعة ، ثم تنتهى بالسلب والنهب ، وربما القتل والتمثيل ، وهذا بلاشك

مما أمات فى النفوس الأنفة الإسلامية ، والشيم الحميدة ، حيث صار أفراد تلك الجيوش كالوحوش المتنافسة على فريستها ، حينما تجردوا من كل خلق سليم ،أو قيم حميدة ، حيث لم تنج أسرة واحدة من الأسر الحاكمة فى ذلك العصر من الصراع الداخلى والخارجى(٥٧)، بل أمضوا معظم سنى حكمهم فى ذلكم الصراع ، وهكذا أصبح الاستقرار السياسى شبه معدوم عندهم ، بسبب الجشع والطمع ، والسعى وراء الذات ومصالحها .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد أدى الظلم فى جمع الأموال من الرعية ، وتحصيلها بأى وسيلة ممكنة إلى قول أحد المعاصرين « إنه ليس فى الأندلس فى ذلك الوقت درهم حلال ولادينار طيب يمكن القطع بأنه حلال عدا ما يستخرج من وادى لاردة من ذهب »(٥٨) كما قال أحد الكتاب المحدثين إنه فى الوقت الذى كان النصارى يعدون الرجال لحرب المسلمين كان سلاطين الأندلس يخزنون الأموال ، ويضيعون الرجال ، كما قال أحد المعاصرين إن تلك الحال لا يصلحها إلا نبى(٥٩).

ويبدو أن هذا المرض بل الداء العضَال قد تأصل فى نفوس جميع ملوك الطوائف حتى من عُدوا من الفاسطين منهم كأبى الحزم ابن جهور الذى وصفه الذهبى بأنه « من رجال الدهر حزماً وعزماً ودهاء ورأياً »(٦٠) كما وصفه ابن حيان بأنه أمين الجماعة المأمون عليها(٦١). لكنه مع هذا كان حريصا على جمع المال ، «حتى تضاعف ثراؤه وصار لاتقع عينه على أغنى منه أحاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ماوجد عائبه عليه مطعنا ولكمل لو أن بشرا يكمل »(٦٢) كما يقول ابن حيان . ولعل من الإنصاف أن نذكرهنا أن ثراء أبى الحزم بن جهور لم يكن على حساب بيت الدولة ، بل كان بسبب نظره لمعيشته حسبما يقوله ابن عذارى(٦٣)، كما ذكر ابن بسام أنه كان لايلتبس من مال المسلمين ولا يدخل داره(٦٤)وقد ذكر ابن عذارى - أيضا- نقلا عن ابن حيان أنه « اخترع لهم لأول وقته نوعا من التدبير حملهم عليه ، وأجادوا السياسة فيه ،

فانسدل الستر على أهل قرطبة مدّته وحصل كلّ ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتليه ، وصير ذلك فى أيدى ثقاة من الخدمة مشارفاً لهم بضبطه فإن فضل شىء تركه فى أيديهم ، مثقفا مشهودا عليه لا يلتبس لهم بشىء منه ، ومتى سئُل قال ليس لى عطاء ولا منع هو للجماعة ، وأنا منهم ...»(٦٥).

لكن تلك الأمور التى تجمعت فى بيت مال قرطبة لم تفدها كثيرا . ذلك أنها لم توجه إلى إعداد القوة وتحصين البلاد ضد الأخطار المحيطة بها ، بل ربما أضحت مصدر خطر حينما تسامع بها أولئك الطامعون فتداعوا عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها .

وكان هذا الحرص على التكاثر المادى عند ملوك الطوائف سببا فى ظلم الرعية والاستيلاء على أموالهم بغير حق(٦٦)، كما كان عاملا رئيسا فى القعود عن الجهاد ، بل حتى عن إعداد الجيش ومدافعة العدو القادم . ولعل مما يدل على ذلك موقف أهل بربشتر(٦٧) التى داهمها العدو سنة ٤٥٦هـ فقد وجد فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه كثرة ، كما يذكر البكرى(٦٨)ولا استبعد أن تكون ظاهرة التكاثر المادى التى عُنى بها أولئك القوم ،حتى أصبحت آفة من آفات عصرهم ، قد عمل النصارى على إشعال جذوتها والسعى لتأجيج نارها بين المسلمين ، حتى يهدموا بيوتهم بأيديهم ، ويقضوا على قوتهم بذلكم المعول البالغ الأثر فى القضاء على الأمم والشعوب . ولعل مما يؤيد هذا الأمر ما ذكره الحجارى من أن النصارى قد تنبهوا لهذه الثغرة منذ وقت مبكر ، حيث قال أحد ملوكهم مخاطبا قومه حينما رأى طلائع جيوش المسلمين الفاتحة تجتاح بلاد الأندلس :« لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يُصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تُغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر»(٧٠) .

ولعل من المناسب أن نشير فى نهاية هذا المبحث إلى أنه بالرغم من حرص ملوك الطوائف على المال وجمعه إلا أنه كان يرخص فى عيونهم حينما يرون أن

بذله يدعم سلطانهم ، أو يظهر هيبتهم ، ولهذا بذلوا الكثير منه لكسب الأدباء والشعراء ، ورغبة فى الحصول على مدحهم وثنائهم . ومن أمثلة ذلك أن المعتصم بن صمادح (٤٤٣-٨٨٤هـ) منح قرية بأكملها للشاعر أبى الفضل جعفر بن أبى عبدا لله البرجى ، حينما قدم إليه يشتكى عامل تلك المدينة، وأنشده قصيدته التى مطلعها :

قامت تجر ذيول العصب والحب ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

إلى أن بلغ قوله :

لم يبق للجور فى أيامهم أثر إلا الذى فى عيون الغيد من حور

فقال له المعتصم :« أنا سوغك جميعها لهذا البيت الواحد ، ثم وقع له بها وعزل عنها نظر كل وال » (٧١).

أما المعتمد بن عباد (٤٦١- ٤٨٤هـ) فقد أعطى الشاعر عبد الجليل بن وهبون ألفى دينار على بيتين اثنين من الشعر هما :

غاض الوفاء مما تلقاه فى رحل ولا يمر بمخلوق على بال

قد صار عندهم عنقاء مُغربة أو مثل ماحدّثوا عن ألف مثقال(٧٢)

كما منح الشاعر أبا العرب الصقلى على بعض شعره مبلغا كثيرا من الدنانير الفضية ، وتحفة غالية فى صورة جمل من العنبر مرصع بنفيس الجوهر بيع بخمسمائة مثقال (فسارت بهذا الخبر الركائب وتهادته المشارق والمغارب(٧٣).

أما صور ذلك الضعف فى القيم الأخلاقية فقد بدت واضحة ومن أهمها مظاهر الإسراف والبذخ والعيش فى حياة مترفة تجاوزت الحدود فى هذا الأمر ؛ إضافة إلى انتشار المجون والخلاعة بين أو ساط كثير من شرائح بمجتمع ملوك الطوائف .

٢- الترف والإسراف :

أما مظهر الإسراف والترف فقد تحدث عنه المؤرخون كثيراً ، ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك ماذكروه من إسراف المعتمد بن عباد - صاحب

إشبيلية ذلك أن زوجته اعتماد الرميكية رأت ذات يوم بإشبيلية نساءَ البادية يبعن اللبن فى القرب وهن رافعات عن سوقهن فى الطين ، فقالت له : أشتهى أن أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النسوة ، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد ، وصير الجميع طينا فى القصر ، وجعل لها قربا وصالاً من ابرسيم ، وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين . ويقال : إنه لما خلع وكانت تتكلم معه مرة ، فجرى بينهما مايجرى بين الزوجين ، فقالت له : وا لله ما رأيت منك خيرا قط ، فقال لها : ولا يوم الطين ؟ تذكيرا لها بهذا اليوم الذى أباد فيه من الأموال مالا يعلمه إلا ا لله تعالى ، فاستحيتْ وسكتتْ(٧٤)

كان هذا مثالاً واضحاً يدل على ما حلّ بدولة بنى عباد من ترف وبذخ ، وقد سارت على هذا المنهج دولة بنى ذى النون التى بلغت فى البذخ والترف إلى الغاية كما يقول المقرى (٧٥) ، وقد ذكر كدليل على هذا ماعرف عندهم بالأعذار الذنونى ، والذى كان يضرب به المثل عند أهل المغرب ، إذا أصبح عندهم بمثابة عرس يوران عند أهل المشرق(٧٦) .

وقد ترك ابن حيان وصفا لوقائع ذلك الحفل الكبير الذى أقامه المأمون احتفالا بختان حفيده يحيى ، وفيه من صور الترف والبذخ ما ينم عن أن بنى ذى النون قد استرسلوا فى هذا الأمر(٧٧)كما بالغوا - أيضا- فى بناء القصور الفخمة، والتى كانت سببا فى هدم الدين والدنيا ، وتسلط الأعداء من النصارى ، كما يقول ابن بسام(٧٨) ، وقد عد الأموال التى أنفقت فى هذه الأعمال بأنها من السحت(٧٩) .

وقد سلك مبارك ومظفر العامريان فى إشادة البناء والقصور ، والتباهى فى عليات الأمور ، مسلك المبذرين ، وحذا نهجهما كتابهما ووزراؤهما وكثير من رعاياهما ، حيث هاموا فى ترهات مضلة ، وأعمال متصلة لاهين عما كانت فيه الأمة حينذاك من محن وأخطار(٨٠)، كذلك ذكر ابن عذارى أنهما بلغا فى هذا الأمر منتهاه ، حيث انغمسا فى النعيم إلى قمم رؤسهما ، وأخلدا إلى الدعة ، وسارعا فى قضاء اللذة حتى أربيا على من تقدم وتأخر(٨١).

ومما يذكر فى ميدان حياة الترف التفنن فى بناء القصور والمبالغة فى الانفاق عليها بل والسهر والجهد فى متابعة بنائها . وكان الواحد منهم حينما لا يظهر البناء بالشكل الموافق لرغبته ، وبالتالى لا يسد مالديه من فراغ ويملأ ما عنده من طموح ، يصبح ويضحى وهو مكفهر الوجه ، شارد الذهن كأنه قد أصابته فاجعة «لضياع ثغوره ، وتشعث أموره ، وامتشار الشرك بإزائه وظهوره»(٨٢) ولعل موقف المأمون بن ذى الذنون من عريف بناء قصره بطليطله دليل واضح على تأصل حياة الترف فى نفوس أولئك القوم(٨٣)، ومما يدل على هذا الأمر أيضا أن ابن بسام أفرد حديثا خاصا لماتناهى إليه المأمون من تشييد البنيان بقصور طليطلة (٨٤) .

وقد ساق ابن حيان مارواه أبو العباس السكرى الأسكندرانى أحد وزراء المأمون بن ذى النون حيث قال :« فدخلنا عليه - يعنى المأمون - لأيام يسيرة من مهلك أبيه ، وهو فى إيوان كبير قد ملأه بنقر الفضة ... فأمرنا بالدنو ، فبعد لأى ماخلصنا إليه ، لكثرة ما كان من ذلك بين يديه ، وقد امتلأت صدورنا عجباً ، وتقيدت الحاظتنا فما تجد متقلبا ، لهذا الاتفاق كيف وقع ، ولهذا السحت من أين جمع فاتصل رأى أبيه فى اختزانه ، ويُعرض بجمود كان فى بنائه ، ونحن نقول : لعله قد أنف لضياع ثغوره وتشعث أموره ، وانتشار الشرك بإزائه وظهوره ، وكأنه فهم مانحير ، وعلم إلى أين نشير ، فأظلم مابيننا وبينه وازور ازوراره أنكرنا بها أثره وعينه ، وقال من حق مثل هذا أن يصرف فى مثل ضروب الحلية الرائقة ... قال ابن بسام فتبارك من أحاط بالأشياء ، ولم يخف عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب ببيانه الهادم للدين والدنيا شأنه مربطا للأفراس وملعبا للأعلام الأرجاس(٨٥) » .

هذه نماذج لحياة الترف فى عصر ملوك الطوائف ، وهى بلا شك تعطى دليلاً واضحاً على ماوصل إليه ذلك المجتمع من إيغال فى تلك الحياة ، بل إنها تدلنا دلالة واضحة على تفننهم فى هذا المجال ، بل وحرصهم عليه مهما كانت النتائج المتمخضة عنه . ولهم فى هذا الميدان وغيره من المجالات المشابهة له أخبار

مأثورة كما يقـول ابن حيان(٨٦) . بل إن هذا الأمر قـد تأصـل فى نفوسـهم حيث لم يستطع الكثير منهم الخلاص من حياة الترف فقد ذكر ابن حيـان أن أهـل مدينة بلنسية قد خلوا بشهواتهم فتهاووا على المنكـرات والمعـاصى(٨٧) . ويؤكـد ابن الدلائى هذا الأمر حيث يقول :(وقد اطبعت مدينة بلنسية بقلة الهم ، لا يكـاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات ألا وهـو قليـل الهـم مليئـاً كـان أو فقـيرا ، وقـد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسـباب الراحـات والفـرج ولاتكـاد تجـد فيهـا مـن يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ لنفسـه مغنيـة أو أكـثر مـن ذلـك ، وإنمـا يتفاخر أهلها بكثرة الأغانى ، يقولون عند فلان عودان وثلاثـة وأربعـة وأكـثر مـن ذلك ، وقد أخبرت أن مغنية بيعت فى بلنسبة بـأكثر مـن ألـف مثقـال طيبـة وأمـا مادون الألف فكثيرات »(٨٨).

وقد ذكر الأمير عبد الله بن بلقين (٨٩) أن أهل البيرة على مثل هذه الحـال، كما ذكر أيضا أن جده باديس بن حبوس قد أخلد إلى الراحة والشراب والدعـة ، وترك البلاد(٩٠) .

ولم يكن هذا الأمر فى أوقات السلم ، بل كان حتى أيـام الحـرب وأوقـات الشدة وفى ميادين المعارك . وقد ذكر المؤرخون عددا مـن الأمثلـة الدالـة علـى ذلـك، ومنها وصف ابن حيان لخروج أهل طليطلة لقتال عدوهم حيث خرجوا خروجاً غـير لائق للقتال فيقول : « ومما وقع من التعجب أنه أخـذ مـن البيـاض المقتولـين مـن أهـل طليطلة فى ذلك الوقعة ألف غفارة من لبوس أهل الرفاهية أيام المباهاة ، ركبوا بهـا إلى الطاغية – قصمه الله – كأنهم وقد سلم يشيدون العاقدة ، فياللرجال الحلـوم قـوم سكان بثغر مخوف ن أبناء قتلى وسلالة أسرى ، فلما خلوا مـن هيعـة ، عدمـوا الراعـى العثوف منذ حقب ، فنبذوا السلاح وقعدوا فوق الأرائك مقعد الجبـابرة المتفـاتنين بين أهل موسطة الأندلس ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة»(٩١).

ويبدو أن هذه الموقعة التى تحدث عنها ابن حيان كانت من الأحـداث التـى قبل سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م. حيث أن ابن حيان لم يشهد السقوط واحداثه بل توفى رحمه الله قبل ذلك .

ويضاف إلى ما سبق ذلك الوصف الذى قاله الشاعر ابن الجد (٩٢) فى أهل بلنسية وهم خارجون للقاء عدوهم فى معركة بطرنه (٩٣) سنة ٤٥٦هـ وذلك حينما خرجوا بثياب الزينة غير متأهبين للقتال حيث قال :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا(٩٤)

٣- الخلاعة والمجون :

ومن صور الضعف فى القيم الأخلاقية الخلاعة والمجون ، واتضح هذا الأمر فى التعلق بالجوارى والشغف بهن وما صاحب ذلك من شيوع العلاقات الغرامية، والاسترسال فى هذا الأمردون مبالاة بتعاليم الدين ، أو التزام بأداب الحياء والستر وقد ذكر ابن حزم أن الضعف فى هذا المجال عم جميع الناس و لم يسلم منه النزر القليل(٩٥) كما أسهب المؤرخون فى الحديث عن هذا الأمر ، إذ ذكر ابن حيان أن قرطبة حاضرة المسلمين هناك أصبحت مرتعا خصبا لمزاولة تلك الرذائل ، حيث كان ملوك الطوائف إذا احتاجوا إلى شىء من الملهيات يرسلون رسلهم إلى قرطبة للبحث والتنقيب عن الأوصاف التى يريدونها من الجوارى ، وأنه فى شوال سنة ٤٤٢هـ ، ورد على أبى الوليد بن جهور فى قرطبة رسول المظفر بن الأفطس يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار واشتراهماله(٩٦) .

كما ورد على أبى الوليد بن جهور بقرطبة من الكتب فى يوم واحد كتاب من ابن اصمادح صاحب المرية يطلب فيه جارية عواده ، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة(٩٧) .

وقد اشتهر المعتمد بن عباد بأنه كان « له كلف بالنساء وخلط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد نظرائه » كما كان مولعا بالنساء حيث خلع ثمانمائة امرأة من أمهات الأولاد، وجوارى المتعة، وإماء الخدمة(٩٨).

وكان مجاهد العامرى صاحب دانية والجزر الشرقية ذاشخصية مزدوجة ، فطورا كان ناسكاً ، وطورا يعود خليعا فاتكا لايساتر بلهو ، ولالذة ، ولا يستفيق من شراب وبطالة ، ولا يأنس بشيء من الحقيقة ، له ولغيره من سائر ملوك الطوائف فى ذلك أخبار مأثورة(٩٩) ويقول ابن حيان : أما هذيل بن خلف بن زرين صاحب شنتمرية فقد كان من أرفع ملوك الطوائف همة فى اقتناء القينات حيث اشترى جارية بثلاثة آلاف دينار(١٠٠) .

وكان ممن غرقن فى تلك المستنقعات ، ولادة بنت المستكفى الأموى ، والتى أعلنت وقوعها فى هذا الأمر ، حيث كتبت بالذهب على طرازها الأيمن(١٠١) :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه فيها

وكتبت على الطراز الأيسر :

وأمكّن عاشقى من صحن خدّى وأعطى قبلتى من يشتهيها

وقد ذكر ابن حزم فى كتابه طوق الحمامة العديد من صور الانحلال الخلقى التى كانت موجود فى ذلك العصر . ومن أمثلة ذلك مجلس جمع بينه وبين إخوانه عند بعض مياسير أهل بلده وقد وصف المجلس بقوله :« ... فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضا من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته ، وغمزا استشعته ، وخلوات الحين بعد الحين ، وصاحب المجلس ، كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينته ، وحركته بالتصريح فلم يتحرك فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن وهما هذان :

إن إخوانه المقيمين بالأمن أتوا للزناء لا للغناء

قطعوا أمرهم وأنت حمار موقر من بلادة وغباء

وأكثرت من إنشاءهن حتى قال لى صاحب المجلس : قد أمللتنا من سماعهما فتفضل بتركهما أو إنشاء « غيرهما فأمسكت وأنا لا أدرى أغافل هوام متغافل ، وما اذكرانى عدت ذلك المجلس بعدها »(١٠٢) .

وبالإضافة إلى ماذكره المؤرخون ، فقد ذكرت كتب الحسبة التى عاصرت أولئك القوم أن التعلق بالقيان أصبح عادة منتشرة بين كثير من شرائح المجتمع وفئاته ولو كانوا من المؤذنين والقضاة حتى قال أحد الشعراء .

ليتنى فى المؤذنين حياتى أنهم يرون من فى السطوح
فيشيرون أو تشير إليهم بالهوى كل ذات دل مليح(١٠٣)

وقد ذكر ابن عبدون أن مجالس القضاء كان لا ينكر فيها وقوع مراودة المرأة والكلام معها ، وربما طالت قضيتها أمام القضاء ، حتى يتكرر دخولها على القاضى . وقال ابن عبدون أنه رأى هذا عيانا(١٠٤) .

هكذا غرق أولئك القوم فى مستنقع المجون والخلاعة ، وقد استغل هذا الأمر بعض الوزراء والموظفين الذين رغبوا أن يستبدوا بالحكم والسلطان ، فأشغلوا حكامهم بإغراقهم فى الملذات ، وإشغالهم بالنساء اللائى كثرن ، وأخذ الكثيرات منهن تطمح فى ولاية من تربيةّ من أبناء السلطان حتى يكون لها الحظوة والغلبة(١٠٥)، ويذكر الأمير عبد الله بن بلقين أن أشغال الحكام بالنساء كان أمرا مألوفا عند وزراء دولة بنى بلقين فى غرناطة(١٠٦) .

أما شرب الخمر فى قرطبة وغيرها من بلدان ملوك الطوائف فيبدو أنه أصبح أمرا لاغرابة فيه فى ذلك العصر ، حيث يذكر ابن حزم أن بيع الخمر فى بلاد المسلمين - آنذاك - أصبح أمراً مباحاً(١٠٧) ولهذا لما حاول أبو الحزم ابن جهور منعها مدحه الشعراء ومنهم ابن زيدون ، وعبد الرحمن بن سعيد المصغر(١٠٨) ، كما ذكر المقرى أن وادى إشبيلية لا يخلو من جميع أدوات الطرب وأن شرب الخمر فيه غير منكر(١٠٩) .

ولعل القارىء لدواوين الشعر فى ذلك الوقت يدرك كيف أن وصف الخمرة والتغنى بها كان أمرا مألوفا عند كثير من شعراء ذلك العصر حتى قال أحدهم(١١٠) .

جرت منى الخمر مجرى دمى فجل حياتى من سكرها

ولم يكن هذا الأمر قاصرا على فئة معينة من الناس ، بل كان كثير من الناس يقضون لياليهم إيقاظا يجتمعون على الكؤس حتى الصباح(١١١) .

بل لقد ذكر ابن عبدون أن مجالس القضاء لم تخل من ذلك حيث إن الخصماء أمام القضاة ما رسوا ذلك(١١٢) .

وكان للطرب والغناء نصيب عند أولئك القوم ، فقد كانوا يتفاخرون بكثرة آلاتها ومجيديها حيث يقولون : عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك(١١٣) .

ولو حاولنا استقصاء ماذكره المؤرخون حول الطرب والغناء فى عهد ملوك الطوائف لطال بنا المقام ولكن قد يكون من المناسب أن نكتفى بذكر ماقاله أحد الباحثين حول هذا الموضوع حيث قال :((فانتشرت مجالس الغناء وأصبح هذا الفن بجملته جزءا من ثقافة الشعب حتى لنجد الفلاح فى حقله ، والعامل فى مصنعه ، والفقير فى كوخه ، لايقل ولع أحدهم بالغناء عن الأمراء والعظماء(١١٤).

وكان هاجس الترف واللهو يسيطر على عقول أولئك القوم حتى وهم فى ساحات الوغى وميادين القتال .فالمعتمد بن عباد حينما كان يحكم شلب أرسله أبوه ليحتل مالقة ، لكنه فى الطريق إليها انشغل باللهو والسرور صحبة مغنيات كان يلتقطهن أثناء مسيره إليها ، فلم يستعد لمنازلة الخصوم فهزم . فلما عاد إلى أبيه ، وكان غاضبا عليه أرسل إليه قصيدة جاء فيها :

لم أوت من زمنى شيئًا ألذبه فلست أعهد ماكأس ولا وتر
ولا تملكنى ذلّ ولا خفر ولا سبى خلدى غنج ولا حور
هو المدام التى أسلوبها فإذا عدمتها عبثت فىقلبى الفكر(١١٥)

وقد كان انشغال الظافر بن المعتمد بن عباد حاكم قرطبة ووزيره ابن مرتين باللهو والشراب سبباً فى دخول ابن عكاشة مدينة قرطبة وقتله إياهم(١١٦) .

وقد بدأت أعراض تلك الأوجاع التى حلت بالمجتمع الإسلامى فى الأندلس فى تلك الفترة تظهر عيانا فاستخف بعض الناس بالدين وتجردوا من الأخلاق والقيم الإسلامية ، وانتشر العهر بين النساء والبنات ، بل إن بعض زعماء ذلك العصر أباح لرجاله محارم الناس ، فكانوا يأخذون النساء من أزواجهن ، والبنات من آبائهن ، بل إن أحدهم زنى بزوجة أبيه وبعمته غير مبال بحرمة أو مرتدع من دين أو سلطان (١١٧) .

ومن صور الانحلال الخلقى ؛ الشغف بالغلمان ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن حزم من أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة فى الأندلس ، عشق غلاما نصرانيا فوضع له كتابا فى تفضيل التثليث على التوحيد تقربا إليه(١١٨) ، كما يذكر – أيضا – أنه فى ذلك العصر عظم البلاء فهان القبيح ورق الدين حتى رضى الإنسان بالفضائح والقبائح مقابل وصوله مراده وشهوته . وقد حكى لنا كثيرا من القصص حول هذا الموضوع منها ماذكره حول « عبيد الله بن يحيى الأزدى المعروف بابن الحريرى فإنه رضى بإهمال داره وإباحة حريمة والتعريض بأهلة طمعا فى الحصول على بغيته من فتى كان علقه ...»(١١٩).

كذلك ذكر ابن بسام أن ابن السقا(١٢٠) وزير بنى جهور كان رجلاً عَهر الخلوة لزهده فى النساء ، وكلفه بالغلمان ، حيث اتخذ داراً آخر مدته للخلوة بهم. فكان لا يخدمه فيها ولايحف به غير خاصة غلمانه كما كان لايأذن لأحد من طبقات الناس بالدخول إليه فيها ، ولهذا أكثر الناس القول فى هذه الدار وسموها دار اللذة(١٢١) .

وتحتوى كتب الأدب ودواوين الشعر على نماذج كثيرة لهذا النوع من الإنحلال الأخلاقى . وقد وصف ابن خاقاب أحد أدباء إشبيلية بقوله إنه : « لا يحفل بملام ، ولا ينتقل عن المدام إلا فى طاعة غلام »(١٢٢) كما قال فى وصف آخر أنه كان أليف غلمان(١٢٣).

ومن العجب أن هؤلاء القوم على الرغم من وقوعهم أسرى لملذاتهم وشهواتهم إلا أنهم كانوا وهم فى تلك الحال لا يعفون عمن يشعرون بأنه يسىء

إليهم ، أو يهدد سلطانهم . فالمعتمد بن عباد حينما غنت له إحدى الجوارى وقع فى نفسه أنها تعرّض بالمرابطين فألقاها فى النهر وهلكتْ ...(١٢٤).

أما عن أثار ونتائج هذا التدهور الخلقى الذى أصاب - ملوك الطوائف فلا شك أنها كانت وخيمه وبخاصه فى الجوانب السياسيه والعسكرية ذلك لأن النصارى كانوا يراقبون واقع المسلمين فلما رأوا أنهم قد غرقوا فى مستنقع الفحش والرذيلة ، وأنهم أصبحوا يعيشون حياة طابعها الخلاعة والمجون ، أخذوا يسعون للإطاحة بهم . وقد بّين هذا الأمر السيد القمبيطور فى خطابه إلى أعيان بلنسية ، ومما جاء فيه : « ... من كانت له قضية عادلة فليأت إلى متى شاء ، وسأستمع إليه ، فإنى لا احتجب عنكم ، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أولو أمركم ممن لم يمكنكم قط رؤيتهم »(١٢٥) .

هكذا زالت هيبة ملوك الطوائف من نفوس أعدائهم ، وكسر حاجز القوة بينهم بسبب تردى أخلاقهم وانغماسهم فى حياة المتع واللذائذ ، ولم يكن هذا الشعور عند النصارى فقط ، بل إنهم هانوا حتى فى نظر إخوانهم المسلمين ، كما يتضح فى قول السلطان يوسف بن تاشفين (٤٦٥-٥٠٠هـ) :« إنما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستفذها من أيدى الروم لما رأينا استلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة، إنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم طوال هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم - يعنى الروم خيلاً ورجالاً لاعهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، وإنما أحدهم فرس يروضه ، ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته ...»(١٢٦) .

ومما لاشك فيه أن هذا الضعف الذى منى به ملوك الطوائف جعل مسلمى الأندلس يصابون بخيبة أمل ؛ لأنهم أدركوا أن زمام الموقف أصبح بيد النصارى المتربصين ، عبر عن هذا الشعور الشاعر الأندلسى ابن العسال حينما قال :

حثـــوا واحلكم يـــا أهـل أندلس　　فمـــا المقـــام بهـــا إلا من الغلط
الســـلك ينثـــر من أطرافه وأرى　　ســلك الجزيرة منثورا من الوسـط
من جاور الشـــر لايأمن عواقبه　　كيف الحيُاة مع الحيات فى سفط؟(١٢٧)

و لم يكن هذا الشعور قاصرا على المسلمين بل تعداهـم إلى العـدو النصرانـى الذى أدرك أن حصون المسلمين الداخلية قد ضعفت وأن الفرصـة أصبحـت مهيـأة له لدخول الثغور والحصون الخارجية . ولهذا وضعوا خطة حربية تتناسب مع ذلـك الواقع . وقد أبان هذه الاستراتيجية الحربية فرناندو بـن شـانجة ملـك جليقيـة أثنـاء حصار النصارى لمدينـة طليطلـة سنة ٤٧٨هـ حيـث قـال لأهلهـا الذيـن خرجـوا يطلبون الصلح معه لما أعيتهم المقاومة :« ... مـا أجيبكـم إلى سـلم ، ولا أعفيكـم من حرب ... فإنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فـى أول أمركـم ، فقـد سكنتموها مـا قضـى لكـم ، وقـد نصرنـا الآن عليكـم برداءتكـم ، فـارحلوا إلى عدوتكم - يعنى بلاد المغرب - واتركوا لنا بلادنا ، فلا خـير لكـم فـى سكناكم معنا بعد اليوم ...»(١٢٨) كما أبانها الفونسو السـادس - ملـك قشـتالة - حيـث قال لرسول المعتمد بن عباد حينما قدم إليه : «... كيف أترك قوما مجـانين تسـمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم ... وكل واحد منهم لايسل فـى الـذب عـن نفسـه سـيفا ، ولايرفـع عـن رعيتـه ضيمـا ، ولاحيفـا قـد أظهـروا الفسـوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان! وكيف يحل لبشـر أن يقـر منهـم علـى رعيته أحداً ، وأن يدعها فى أيديهم سدى »(١٢٩) .

وقال أحد قادة النصارى بعـد إحـدى المعارك التى خاضها مع المسـلمين : « كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة ، فـإذا القـوم لادين لهـم ، ولاشـجاعة فيهـم ، ولاعقـول معهـم(١٣٠) » . وقـد أكّـد هـذا الأمـر الكـاتب النصرانى (اغخل بالنثيا) حينما ذكر أن ملوك الطوائف وهن أمرهم بسـبب مـاحل بهم من ترف وبذخ وسعى للمطامع والنزوات(١٣١) .

وقد صرح بتلك النوايا والخلط وزير الفونسو السادس شششندو (مسـنندو) حيث يذكر الأمير عبد الله بن بلقين فى مذكراتـه أن هـذا الوزيـر النصرانـى قـال

لمسلمى غرناطة قبيل سقوط مدينة طليطلة بأيدى النصارى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) « إنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأنخس البقاع جليقية فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال ، والمطاولة حتى إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلاتكلف »(١٣٢).

* * *

هذا عرضا لبعض ما سجله المؤرخون عن ظاهرة الضعف فى القيم الأخلاقية ، فى المجتمع الإسلامى فى عصر ملوك الطوائف(١٣٣). ومما لاشك فيه أن هذا التحول فى حياة الناس فى ذلك العصر يعد منزلقا خطيراً وسابقة لها مابعدها من النتائج والآثار . ومن أهم النتائج المترتبة على ذلك بداية الزحف النصرانى على الثغور الإسلامية مما أدى إلى سقوط العديد من القواعد الإسلامية مثل طليطلة وقلمرية ، وبرنشتر ، وبلنسية وغيرها ، مما أدى إلى إنحسار الوجود الإسلامى ، ومكن العدو من القضاء على دوله المسلمين بالأندلس .

الهوامش

(1) Suarez Fernamdez : Manual de Historia umiverral . Tomo lll Madrid 1972 Zo Edi pp 159 .

(٢) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات ص٢٩٦. وقد تمخّض عن حياة الترف والمجون ثروة أدبية تمثلت في الشعر والنثر الذى قاله كثير ممن عشق تلكم الحياة ، مما أثرى الجانب الأدبى فى ذلك العصر ، وقد اعترف بذلك عدد من المؤرخين المسلمين والنصارى .

انظر: ابن نباته : سراج العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ص٧

Menendez Pidal : Poesia , arabe Poesia Europes Coleccior austral No 19 Madrid , 1975 pp 94 .

Jose Hagerty : Al-muctamid : Poesia Barcelona 1979, pp17

(٣) سورة الإسراء ١٦.

(٤) المقدمة جـ١ص٢٥٢-٣٥٣

(٥) ابن بسام : الذخيرة ق٣جـ١ص١٨٨-١٨٩،(نقلا عن ابن حيان) المقرى: نفح الطيب جـ٤ص٤٥٢.

(٦) ابن حزم : رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس جـ٣ص٤١.

(٧) المصدر السابق ص١٧٦.

(٨) ابن عذرى : البيان المغرب جـ٣ص٩٠.

(٩) تاريخ الأندلس ص٧٧-٧٨.

(١٠) ابن بسام : الذخيرة ق٢جـ١ ص٢٥٦-٢٥٧.

(١١) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٤٨٤ - ٤٨٦ ، وهذه القصيدة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً ، وقد قام الدكتور الطاهر أحمد مكى بتحليلها والتعرف على هوية قائلها .

(انظر كتابه :(دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة جـ١ص٢٢٩.)

(١٢) البيان المغرب جـ٣ص٢٣٠.

(١٣) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ص ٣٠١.

(١٤) البيان المغرب جـ٣ ص٢١٢.

(١٥) المصدر السابق ص١٤٨,٢٣٢.

(١٦) قلائد العقبان ص١٢٦.

(١٧) ابن الأبار: الحلة السيراء جـ٢ص٤٦.

(١٨) المراكشى : المعجب ص١٥٢.

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٢٣.

(٢٠) المصدر السابق جـ٣ص١٢٣.

(٢١) المصدر السابق جـ٣ص١٨٣.

وقد قال عنه ابن عذارى بأنه حيّة صماء لم يشارك فى معونة مسلمى الأندلسى بدرهم، ولم يمد بفارس على كثرة ماطرق الأندلس من الخطوب (البيان المغرب جـ٣ص١٨٣) كما ذكر أحد الباحثين المحدثين بأن التاريخ لم يحتفظ له بصفة كريمة تستحق الذكر ، وكل ما عرف عنه هو انهماكه فى الملذات والترف والإسراف فى ذلك) سعد البشرى : الحياة العلمية فى عصر ملوك الطوائف ص٨٢.

(٢٢) المراكشى : المعجب ص١٤١.

(٢٣) انظر تفصيلات ذلك فى المعجب ص١٤٤-١٤٥.

(٢٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٠٥.

(٢٥) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٢٦(نقلا عن ابن حيان)

(٢٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٢٩.

(٢٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦٠-١٦١.

(٢٨) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ص١٦٢(نقلا عن ابن حيان) .

(٢٩) المصدر السابق جـ٣ص١٦٢.

(٣٠) سراج الملوك ص١٦٧.

(٣١) يلحظ القارىء أن المؤرخين حينما تحدثوا عن تلك التصرفات كانوا يتحدثون ، بتحسر ومرارة . فابن حيان عد تولى مبارك ومظفر بأنه من غرائب الليالى والأيام اللاعبة بالأنام، كما ذكر أن توليهما الحكم هو من الحجج البالغة والدالة على هوان الدنيا عند الله ، ولكنهما مع ذلك كانا بعيدين عن الأعتبار.

(ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٥٨،و٣٦٢نقلا عن ابن حيان).

أما ابن عذارى فقد عد وفاة مبارك بأنها نعمة حيث أمن أهل البلد من مقته وكفاهم الله أمره ، كما أنه ذكر سببا معينا لتلك الوفاة مرتبط بظلمه للناس ، وتعديه على أموالهم

حيث قال :(وكان سبب موت مبارك أنه ركب يوماً من قصر بلنسية يبغى الخروج للنزهة خارج البلد ... وأهل بلنسية يستغيثونه فى أن يرفق لهم فى مال كان قد افترضه عليهم فقال لهم يومئذ : اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتى الساعة ، ثم ركب إثر ذلك ، فلما أتى القنطرة وكانت من خشب خرجت رجل فرسه ، فرمى به أسفلها واعترضته خشبة نائية من القنطرة شدخت وجهه وسقط لفيه ويديه ، وسقط الفرس عليه وكسر عظامه ، وفتق بطنه ففاضت نفسه لوقته ، وأمن أهل البلد من مقته ...)) (ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦٣.)

أما ابن بسام فقال فيهما عبدى مهنة وأميرى فتنة قل الناس فكثروا ، وخلالهم الجور فباضوا ، وصفروا ، تساوى عندهم سجع البلبل ورغاء الإبل. (ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص ١٦٢ - ١٦٣) .

(٣١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦٢-١٦٣(نقلا عن ابن بسام).

(٣٢) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص١٨١.

(٣٣) وقد ذكر ابن عذارى أن ابن صمادح تلقب من الألقاب السلطانية بالمعتصم والرشيد وهو يعلم أن من الجور والباطل ملكه الذى ورثه عن أب لم يكرم فيه فعله ولاطال فيه تعبه.

ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٧٤

(٣٤) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٧٣٢.

(٣٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٣.

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٤. (نقلا عن ابن بسام).

(٣٧) ابن بسام : الذخيرة ق ؟؟؟ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٣٣.

(٣٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٥٩.

(٣٩) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٦٠(نقلا عن الكتاب المذكور أعلاه).

(٤٠) الأحكام الكبرى (مخطوط)ورقة ١٥٠.

(٤١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٤٢.

(٤٢) ليث حاسم : أن عبد البر الأندلسى ص٦١.

(٤٣) البيان المغرب جـ٣ص٢٨٢.

(٤٤) الذخيرة ق١جـ٢ص٧٣٣.

(٤٥) يذكر ابن عذارى أنه كان من بين الأسرى الذين أسرهم باديس عدد من حملة الأقلام مثل الوزير أحمد بن عباس وابن حزم وأبو الوليد الباجى، وغيرهم حيث عفى عنهم جميعا دون الوزير بن عباس الذى أمر بقتله ؛ لأنه كان سبباً لتلك المعركة .(البيان المغرب جـ٣ص١٧١).

(٤٦) انظر فى تفضيلات ذلك كلا من عبد الله بن بلقين التبيان ص٢٢-٢٣، ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٦٦٢، ٧٣١-٦٦٥، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦٦و١٧١.

(٤٧) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٢٧٢، (نقلا عن ابن حيان) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٠٢.

(٤٨) هشام بن الحكم المستنصر : ولى الأمر بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٦هـ ، وسنه عشرة أعوام وبضعة أشهر ، حيث تولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبى عامر الوصاية عليه، وفى سنة ٣٩٩هـ خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، الملقب بالمهدى حيث خلعه وقتل وزيره عبد الرحمن بن أبى عامر ، ومن هنا نشأت الفتنة ببلاد الأندلس. وقد بقى هشام بن الحكم (المؤيد) فى قرطبة حتى دخلها سليمان بن الحكم المستعين با لله سنة ٤٠٣هـ ، وهنا اختلف المؤرخون حول مصيره فابن بسام وابن عذارى قالا : قيل إنه قتل ، وقيل : إنه فر من أمام المستعين ، أما ابن الخطيب فيشك فى مقتل هشام حيث يذكر أن موت هشام مشكوك فيه ، بينما يجزم المراكشى بمقتل هشام على يد البربر الذين دخلوا مع سليمان المستعين .

هكذا تباينت آراء المؤرخين حول مصير هشام المؤيد بعد دخول سليمان المستعين لقرطبة سنة ٤٠٣هـ .

ويذكر ابن عذارى أنه لما قامت دولة بنى عباد فى إشبيلية ، وكانت بحاجة إلى سند شرعى يدعم كيانها أمام بعض متربصى ملوك الطوائف لاسيما بنى حمود ، أعلن أبو القاسم بن عباد فى سنة ٤٢٦هـ ، أن هشام المؤيد مختف خشية الفتنة ، وأن بنى عباد قد بايعوه خليفة للمسلمين فى إشبيلية ، كما يذكر ابن عذارى أنه بعد مبايعته أنزل ابن عباد معه فى القصر ، وسلم له مقاليد السلطة ، حيث أصبح حاجبا له كا لمنصور بن أبى

عامر، ثم خطب لهشام فى بعض أقاليم بلاد الأندلس ، مما قطع الأطماع ضد بنى عباد ، لكن ابن الخطيب ذكر أن بعض ملوك الطوائف أرسلوا رجالا للتأكد من صحة الأمر فأدخلوا على الرجل فى بيت مظلم مدعيا أنه يشكو من مرض فى عينه ، فكلمهم وكلموه ، ثم خرجوا من عنده منهم المقر ومنهم المنكر ، وقد سخر ابن حزم من هذا الادعاء ، واعتبره من الادعاءات التى لم تحدث مثلها فى التاريخ (ابن حزم : العروس ص٨٣-٨٤، ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٣٧، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٣١٤-٣١٥، ابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثانى ص١٥٤، المراكشى : المعجب ص٤٥-٤٧).

(٤٩) ابن عذارى ك البيان المغرب جـ٣ص٢٠١.

(٥٠) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٦٠٩، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام جـ ٣ص١٤٩، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٣٣،و٢٦٠، يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس ص٤١.

(٥١) ابن بسام : الذخيرة ق٢جـ١ص١٨.

(٥٢) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٣٨٦-٣٨٧.

(٥٣) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٣٨٧-٣٨٨، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٠٢، دوزى : ملوك الطوائف ص٢٩.

(٥٤) مدينة وادى الحجارة : تعرف بمدينة الفرح بالأندلس تقع شرق قرطبة ، وهى مدينة كثيرة الأرزاق جامعة لأشتات المنافع ، وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلا . (الحميرى : الروض المعطار ص٦٠٦).

(٥٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٧٧.

(٥٦) ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص٢٦٦.

(٥٧) رجب عبد الحليم : العلاقات ص٢٨٨.

(٥٨) رجب عبد الحليم : العلاقات ص٢٩٣،٣٠١.

(٥٩) المرجع السابق ص٢٩٤.

(٦٠) العبر فى خبر من غبر جـ٣ص٣٨٣.

(٦١) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٦٠(نقلا عن ابن حيان).

(٦٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٦(نقلا عن ابن حيان).

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٦.

(٦٤) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٣ص٦٠٣.

(٦٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٦.

(٦٦) المصدر السابق ص٢٣٠.

(٦٧) بربشتر : إحد مدن الثغر الأعلى الأندلسى ، تقع شمال شرق سرقسطة ، وتعد من أمنع القواعد الأندلسية ، أغار عليها النورماينون سنة ٤٥٦هـ ، فتخاذل عن نصرتها جارها أحمد بن هود ، حيث كانت تتبع لأخيه يوسف الذى لم يتمكن من إعانتا ، وقد سقطت بيد النصارى بعد أربعين يوما من الحصار القاسى حينما عطش أهلها ، وقد أدى سقوطها إلى رد فعل قوى عند مسلمى الأندلس حيث تمكنوا من استعادتها بعد تسعة أشهر من سقوطها .

(انظر فى تفصيلات ذلك ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٣ص١٨٩-١٩٠، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٥٣-٢٥٤ ابن الآبار: الحلة السيراء جـ٢ص٢٤٧).

(٦٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٥٣(نقلا عن البكرى).

(٦٩) المقرى : نفح الطيب جـ١ص٢٧٥(نقلا عن الحجارى).

(٧٠) ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص١٩٢، بالنثيا: الفكر الأندلسى ص١١١.

(٧١) بالنثيا : الفكر الأندلسى ص٩٧.

(٧٢) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٢٦١.

(٧٣) المقرى : نفح الطيب جـ١ص٤٤٠.

(٧٤) المصدر السابق جـ٤ص٤٤٠.

(٧٥) المصدر السابق جـ٤ص٤٤٠.

(٧٦) ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص١٤٣-١٤٩.

(٧٧) المصدر السابق جـ ٤ص١٤٩.

(٧٨) المصدر السابق ص١٤٥-١٤٦.

(٧٩) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦١.

(٨٠) المصدر السابق جـ٣ص١٦١.

(٨١) ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص١٤٦.

(٨٢) المصدر السابق ص١٤٨.

(٨٣) المصدر السابق ص١٤٧.

(٨٤) الذخيرة ، ق٤جـ١٤٦ ، ص ١٤٦-١٤٨.

(٨٥) ابن عذارى : جـ ٣ ص ١٥٦(نقلا عن ابن حيان).

(٨٦) ابن بسام : الذخيرة ق٣جـ٣ ٨٥٥،و٨٥٠(نقلاً عن ابن حيان)

(٨٧) نصوص عن تواريخ الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار ص٩٣.

(٨٩) التبيان ص١٩.

(٩٠) المصدر السابق جـ٤٢،و٥٣.

(٩١) ابن بسام : الذخيرة ق٣جـ٢ص٨٥٠.

(٩٢) بطرنة : قرية من قرى بلنسية (ابن سعيد الأندلسى : المغرب جـ٢ص٣٥٥، المقرى : نفح الطيب جـ١ص١٤٣،وجـ ٤ ص٤٤٨.

(٩٣) هو أبو الحسين يوسف بن محمد بن الجد ، وبنو الجد ينتسبون إلى بنى فهر سكنوا ليله وقد أثنى ابن بسام على هذا الشاعر ، وقد استكتبه الوزير ابن عمار (ابن بسام : الذخيرة ق٢جـ٢ص٥٥٦، ابن سعيد : المغرب جـ١ص٣٤٠

(٩٤) ابن بسام : الذخيرة ق٣جـ٢ص٨٥٠، المقرى : نفح الطيب جـ١ص١٨١

(٩٥) طوق الحمامة وقد أشار إلى ذلك فى مواضع مختلفة ، انظر مثلا : ص٩٢ ، و٧١ ، و٧٢، و٤٠ ، و٤٢ ، وغيرها .

(٩٦) ابن عذارى : البيان المغربى جـ٣ص٢١٢(نقلا عن ابن حيان)

(٩٧) المصدر السابق جـ٣ص٢١٢.

(٩٨) ابن الآبار : الحلة السيراء جـ٢ص٤٣،٥٣.

(٩٩) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٥٦(نقلا عن ابن حيان)

(١٠٠) المصدر السابق جـ٣ص٣٠٨.

(١٠١) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٢٠٥.

(١٠٢) طوق الحمامة ص١٧١، وقد ذكر ابن حزم أنه قال فى هذا الرجل قطعة من الشعر منها :

أنت لا شك أحسن الناس ظنا ... ويقينا ونية وضميرا

ليس كل الركوع فأعلم صلاة ... لار لاكل ذى لحظ بصيرا

(طوق الحمامة ص ١٧٢).

(١٠٣) السقطى : أداب الحسبة ص٨.

(١٠٤) ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ص١٢-١٣.

(١٠٥) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات ص٢٩٦.

(١٠٦) مذكرات الأمير عبد الله ص٨٥.

(١٠٧) رسائل ابن حزم ص١٧٤.

(١٠٨) ابن بسام : الذخيرة ق١حـ١ص٣٨٨.

(١٠٩) المقرى : نفح الطيب حـ٤ص١٩٩.

(١١٠) ابن سعيد : المغرب حـ١ص٣٦٩.

(١١١) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات حـ١ص٣٠٠.

(١١٢) رسالة فى القضاء والحسبة ص١٣

(١١٣) العذرى : نصوص عن الأندلس ص١٨.

(١١٤) محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة الإسلامية ص٣٢١.

(١١٥) ابن الأبار : الحلة السيراء حـ٢ص٤٦.، هنرى بيريس : الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف ص٣١٨.

(١١٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام حـ٣ص١٥١ .

(١١٧) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص٣١٣.

(١١٨) طوق الحمامة ١٣٠ .

(١١٩) المصدر السابق ص١٣٠.

(١٢٠) هو أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقا ، كان فى أول أمره فقيراً كايد من شظف المعيشة كان يسكن مع إخوته بدار صهره بجوار المسجد الجامع فى قرطبة ، لكنه لما تولى الأمامة أثرى على حساب الآخرين حيث يذكر ابن حيان أنه لما تحمل الأمانة جعلها أسفل رجله ، كما تحول إلى حرداً للسرقة والخيانة حيث ابتنى القصور المنيعة . (ابن بسام : الذخيرة ق٤حـ١ص١٣٨-١٤٠) .

(١٢١) الذخيرة ق٤ حـ١ ص٢٤٢-٢٤٣.

(١٢٢) قلائد العقيان ٦٨٣.

(١٢٣) المصدر السابق ص٧١٧

(١٢٤) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٢٧٦.

(١٢٥) راجع طاهر مكى ص٤١٧.

(١٢٦) المراكشى : المعجب ص٢٤١-٢٤٢.

(١٢٧) ابن سعيد : رآيات المبرزين ص٥٠، المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٣٥٢.

(١٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٨٢.

(١٢٩) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص٨٩.

(١٣٠) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٩٠.

(١٣١) انخل حنتالت بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة حسين مؤنس) ص٧٧-٧٨).

(١٣٢) التبيان ص٧٣.

(١٣٣) قد يبدو للقارىء أن ما ذكرناه من صور لهذه الظاهرة فيه شيء من المبالغة ، ولكن هذا الأمر يتبدد ويزول حينما يتذكر القارىء أن ما ذكرناه من صور إنما هى من روايات المعاصرين الذين عايشوا تلكم الأحداث كابن حيان ، وابن حزم ، وابن بلقين وغيرهم .

المصادر والمراجع

- **ابن الأبار** : أبـو عبـد الله محمـد بن عبد الله القضاعى المعروف بـابن الآبـار (ت٦٥٨هـ)

- **الحلة السيراء** :تحقيق حسين مؤنس - نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ط / الأولى ١٩٦٣م .

- **ابن الأثير** : أبو الحسن على بن محمد الشيبانى (ت٦٣٠هـ) .

الكامل فى التاريخ/ نشر دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ.

- **بالنثيا** : انخل جنثالث ، تاريخ الفكر الأندلسى - ترجمة الدكتور حسين مؤنس القاهرة ١٩٥٥م.

- **ابن بسام** : أبو الحسن على بن بسام الشنترينى (٥٤٢ هـ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة - تحقيق الدكتور إحسـان عبـاس / دار الثقافـة بيروت ، ط/ الثانية ١٣٩٩هـ .

- **ابن بلقين** : عبد الله بن بلقين الصناجى (٤٨٣ هـ) .

مذكـرات الأمـير عبـد الله المسـمّى بكتـاب التبيـان - نشـر وتحقيـق أ. ليفـى بروفنسال / دار المعارف بمصر (ذخائر العرب١٨).

- **جاسم** : ليث سعود

ابن عبد البر الأندلسى وجهوده فى التاريخ - نشر دار الوفاء للطباعـة والنشـر والتوزيع بالقاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .

- **جمهرة أنساب العرب** :

تحقيق عبد السلام هارون - دار المعارف بمصر ١٣٨٢هـ .

- **ابن حزم** : أبو محمد بن حزم (٤٥٦هـ) :

رسائل ابن حزم الأندلسى - تحقيق الدكتور إحسان عباس

- **الحميدى** : أبو عبد الله بن أبى نصر (ت ٤٨٨ هـ) .

جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس - تحقيق إبراهيم الأبيارى الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

- **ابن الخطيب** : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ) :

أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام القسم الثالث تحقيق ليفى بروفنسال - نشر دار الكشوف ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٥٦ م .

- **خلاف محمد عبد الوهاب** : قرطبة الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية الدار التونسية للنشرتونس ١٩٨٤ م .

- **ابن خلدون** : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . بيروت ، دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ .

- **الذهبى** : أبو عبد الله شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) : العبر فى خبر من غبر ، تحقيق فؤاد الرشيد ، نشر دار المطبوعات والنشر بالكويت ١٩٦١ م .

- **ابن سعيد المغربى** : على بن موسى بن محمد (ت ٦٨٥ هـ) ، المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف . نشر دار المعارف بمصر .

- **السقطى أبو عبد الله محمد بن أبى أحمد** (ت ٥٢٠ هـ) .

آداب الحسبة ، باريس ، المطبعة الدولية ١٩٣١ م .

- **ابن سهل الأندلسى** (أبو الأصبغ عيسى) ت ٤٨٦ هـ .

الأحكام الكبرى (أو نوازل ابن سهل) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ٣٣٩٨.

- **الضبي** : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى (ت ٥٩٩ هـ) : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس علمائها وأمرائها وشعرائها وذوى النباهة فيها ممن دخل إليها أو خرج عنها ، طبع فى مدينة مجريط سنة ١٨٨٤م.
- **الطبرى** : محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .
تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم بيروت .
- **الطرطوشي** : أبو بكر محمد بن الوليد (ت ٥٢٠ هـ) : سراج الملوك .
تحقيق محمد فقى أبو بكر ط/ الأولى ١٤١٤ هـ .
- **طوق الحمامة فى الألفة والألاف** : تحقيق حسن كامل الصير فى ، وتقديم إبراهيم الأبيارى ، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- **عبد الحليم** : رحب محمد ، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، دار الكتب الإسلامية .
- **ابن عبد ربه** : العقد الفريد .
- **ابن عبدون** : محمد بد أحمد التجيبى (ت ق ٦) ، رسالة فى القضاء والحسبة، ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسبة ، نشرها ليفى بروفنسال ، طبع المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥ م .
- **ابن عذارى** : أبو عبد الله محمد المراكشى (ت بعد ٧١٢ هـ) .
البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ومراجعة ج . س . كولان و أ. ليفى بروفنسال . دار الثقافة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م .
- **العذرى** : أبو العباس أحمد بن عمر (ت ٤٧٨ هـ) ، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع لأخبار ...) / معهد الدراسات الإسلامية مدريد ١٩٦٥ م .

- **العطار** : نجاح ، الأندلس من نفح الطيب ، نشر وزارة الثقافة السورية دمشق ١٩٩٠م .

- **ابن الفرضى** : أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ) .

تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ، دار صادر بيروت .

- **ابن القوطية** : أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧ هـ) .

تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبيارى الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ .

- **ابن كثير** : إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م . مكتبة المعارف بيروت .

- **ابن الكردبوس** : أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزرى (ت بعد ٧٣هـ)/ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفة لابن الشباط ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م ، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٧ هـ

- **المراكشى** : عبد الواحد بن على (ت ٦٤٧ هـ) ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة مطبعة الاستقامة ١٣٦٨ هـ .

- **المقرى** : أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (١٠٤١ هـ) / نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار صادر بيروت ١٣٨٨ هـ .

Jose Hagerty : Al- muctamid : Poesia Barcelona 1979 .

Menendez Pidal : Poesia Arabe Poesia Europes Coleccior